محمدعلي شمس الدين

نقطة من دمي المحارب الحزين !

نقطة من دمي على آخر السطر ، هذا اعترافي ان الحروب
انتهت وان الكلام الذي ما انتهى ـ سينفتح بابا جديدا
الى الحرب او للكلام واولها « كتابة اني احبك » لكنني
... رجل شيبته معارك عينيك ها انني اجنح الان
للسلم ـ او ادعي هدنة واهمة .
اؤجل موتي الى اخر الليل ... او اخر السطر ..قررت
ان اختم الموت بالحب هل استطيع ؟
سألقي سلاحي الى عابر ينحني لالتقاط السلاح .
اقول سلاما
وامنح للعسكري « الذي لم يمت » حصيلة ما اكسبتني
الحروب من الاوسمة .
بكائي على صاحب مات « هل ينفع الدمع او صورة
لانتصاري »
وطفلا عثرت عليه يفتش بين النفايات عن امه
فاطعمته جوع قلبي
وقررت ان اختم الموت بالحب .. او بالغناء

* * *

نقطة من دمي على اخر السطر .. هذا ادعائي بان
الحروب انتهت
وان الدموع التي اثقلت جفن أمي ،
تجف بمنشفة الريح شيئا فشيئا . وتشربها شمس
تموز ...
لا بد ان يشرب الصيف كل الدموع ..
وان يطلق الطير احلامه .. في سماء بلا ساحل
ولا نقطة للجمارك عند اشتباك الغيوم ..
ولا بد ان يبدأ العام من نقطة في سقوط المطر ..
اول العام .
ها قد فتحنا شبابيكنا للطيور الاليفة
وها تأخذ الطير اعشاشها
في سطوح المدارس او في ثقوب الحوانيت والاقبية
تعالوا ادخلوا
ولا تفزعوا من عداوات ابائكم
والقوا على الباب العابكم العسكرية
ان في دندنات الصغار ودندنة البحر سرا
يفور الى فرح الارض .. او للبكاء ..
ولكن هذا الشتاء الذي اثقلته السحائب
لم يستطع غسل حزني
ولم يستطع محو كل الدماء التي في زوايا الشوارع
او في زوايا العيون ..
وهذي العواصف لم تستطع محو تنهيدي في الهواء ..

* * *

نقطة من دمي على اخر السطر ..
احلم ان الحروب انتهت
فأحزم تبغا كثيرا .. وشيئا من الخبز والخمر ..
امضي الى البحر .. أودعه هم قلبي ..
واندس تحت الرمال التي لامست ذات يوم
أصابع رجليك او لامست ظهرك النار فيها ..
والقاك فوق الشواطيء تبكين .. والموج
يخزن خفق دمائك فوق الرذاذ ..
وحين تمر خيول من الماء .. تأتي .. وتمضي
تنامين تحت انكسار الزبد
وفوق انكسار البكاء .

* * *

نقطة من دمي .. على اول السطر :
(شمس المساكين) تغفو
والبراكين مغلولة في القبور
ولا بد من قول سر دفين :

مرة جاء (مروان) من غوطة الشام
في آخر الليل القى على قبره نظرة
والقى قليلا من النار فوق العظام
وحين استفاقت مفاتيح اغلاله
وحطمها واحدا واحدا
اوى الى أمه في الخيام
واغفى زمانا على صدرها ..
ولا بد من قول سر دفين :
مرة صار (مروان) نهرا ..
ولكنه ضل مجراه .. فاستوعبته الحقول
وظلت نواعير حمص تغنيه حتى الافول ..
وقيل (تولول) .. قيل بان النواعير تعلك احشاءها
ولا تشرب الماء .. هل اكشف الان
سرا اخيرا وهل اكشف الان سري ؟
تقمصت (مروان) منذ الطفولة
(ومروان طفل عثرت عليه يفتش بين
الخرائب عن شكله
فاطعمته جوع قلبي
وآويت غربته ..)
وعشنا معا نأكل الشوك والعشب او
نرتدي وبر الابل تحت الخيام
وعشنا معا في الحوانيت او في صعاليك
وادي الظلام
واحببته ...
قلت اني (أحبك انت) .. ولا شيء غيرك
لكن سرا حثيثا يراودني في سطور الكلام
ولما اتكأنا على شرفة الله .. ابصرت
(مروان) يهرب مني ..
ويجنح للخمر .. مازجته
وشربنا معا كأسنا المر حتى الجمام
سقطت نقطة من دمي على طرف الكأس ... فاهتز فيها
الـذباب
(ومروان لا يشرب دم اخوانه) ..
ولكنني ملزم ان اقول الحقيقة .
انه شارب
... شارب
... شارب من دمي للقرار
وها ان لحمي يداف على خبزه
ورأسي يطاف به فوق رمح ذليل لاعوانه
وترتاده الطير والسابله ..
ولكنني قلت ان الحروب انتهت
وان الكلام الذي ما انتهى يستثير الكلام ..
وداعا
الى اخر الارض ... اني سأفرغ قلبي
واسكب بين الحوانيت ما ضمه جسدي من دمائي ..
وانصب روحي على شكل مشنقة ..
اشرب في ظلها القهوة المره العربيه ...
وداعا ...
سأدخل في رقصي العصبي الاخير
وداعا ..
سأطلق نحو السماء رصاصة رفضي ..
وداعا ..
ودا .. عا
و .. دا .. عـ .. ـا
(فشمس المساكين) آتية .
واسماؤها الحركية تجتاحني
وما زلت ازعم اني احبك
وانك زادي وامي ، وعكاز قلبي
وطفلي الذي قطرته المرارات من الف عام
وما زلت أزعم أن الحروب انتهت
وان الكلام الذي ما انتهى .. لن يجر الكلام .

جريدة « بيروت » ١٥ تموز ١٩٧٦